وقف مركز مكة العالمي للهداية القرآنية
جمعية القلم للدراسات والأبحاث
مؤتمر هدايات القرآن في بناء الإنسان

عنوان البحث:

ارتقاء القرآن بالحياة الإنسانية

اسم الباحث/ـة

د/ مريم بنت داود بن أحمد العلواني

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله القائل في كتابه الكريم: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [سورة الإسراء : ٩]،

والصلاة والسلام على نبينا محمد ﷺ القائل: " إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهذَا الكِتابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ " (١) أمَّا بعد:

فقد خلق الله ﷻ الإنسان في أحسن تقويم، وميّزه عن سائر المخلوقات وكرّمه، ومنحه القدرة على الارتقاء والتميّز، حيث سخَّر له ما في السماوات وما في الأرض، وأسبغ عليه نعمه الظاهرة والباطنة، ووهبه عقلاً يستطيع به أن يُميز ويُدرك الأشياء، وأنزل القرآن الكريم الذي كشف للإنسان عن دوره الفريد في هذه الحياة، ومنحه القوة الحقيقية لتحقيق التطور المستمر الذي يؤهله لريادة هذا الكون، وأرشده من خلال المنهج الرباني إلى كيفية الارتقاء بهذه النفس الإنسانية للأفضل.

أهمية البحث وأسباب الكتابة فيه:

١. تعلّق الموضوع بكتاب الله تعالى فهمًا وتدبرًا واستنباطًا، والوقوف عند آياته لاستنباط الهدايات القرآنية التي يحتاجها كثير من المسلمين اليوم لتحقيق حُسن الاستخلاف في الأرض.

٢. من المقاصد التي تدعو إليها الآيات القرآنية الارتقاء بالجانب الأخلاقي وتزكية النفس وتطهيرها.

٣. حاجة بعض المسلمين اليوم إلى ما يدفعهم إلى الارتقاء بالجانب الأخلاقي في حياتهم الإنسانية، حيث إن ما تحقق منهم في جانب المادة يفوق ذلك بكثير.

٤. تكاسل البعض الآخر من شباب الأمة عن القيام بدورهم الحقيقي في

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، ح ٨١٧، كتاب الصلاة، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه وفضل من تعلمه حِكْمة من فقه وغيره فعمل بها وعلَّمها، ٣١٨.

الحياة، وانشغالهم بالدنيا وملهياتها وملذاتها متناسين الهدف الأسمى من وجودهم.

٥. بيان شدة ارتباط القرآن الكريم بحياتنا، فالقرآن الكريم غذاء للأرواح، وشفاء للصدور، ومنهج حياة متكاملة يقود الحياة الإنسانية إلى بر الأمان.

أهداف البحث:

١. بيان اهتمام القرآن الكريم بارتقاء الحياة الإنسانية، فالقرآن الكريم وجّه الإنسان إلى الارتقاء في علاقته مع خالقه ﷻ ، وفي علاقة الإنسان مع نفسه، وفي علاقته مع غيره من البشر.

٢. إثبات أن ارتقاء الإنسان بنفسه ناتج عن ارتقائه في علاقته بخالقه ﷻ والعلاقة بينهما طردية.

٣. إظهار أهمية الأخلاق الطيبة في تماسك كيان الأمة واستقرارها ونموها وتقدمها وعلو شأنها.

٤. إقرار أنَّ الأخلاقيات في الإسلام تُعد من الضَّروريات؛ إذ لا بقاء للأمة إذا انهارت الأخلاق وتلاشت.

مشكلة البحث:

تكونت الدراسة من سؤال رئيس وهو: كيف حقق القرآن الارتقاء بالحياة الإنسانية؟ ويتفرع عن هذا السؤال مجموعة من الأسئلة تدور حول هذا الموضوع وتُجلي جوانبه بكل وضوح وهي:

- ما المقصود بالارتقاء لغةً؟ واصطلاحًا؟
- وما تعريف القرآن في اللغة؟ وفي اصطلاحات العلماء المتخصصين؟
- وما مفهوم الحياة في اللغة؟ والاصطلاح؟
- وما المراد بالإنسان لغةً؟ واصطلاحًا؟
- وما هو منهج القرآن الكريم في الارتقاء بالإنسان في علاقته مع خالقه ﷻ؟
- وهل ارتقى القرآن الكريم بالإنسان في علاقته مع نفسه؟ وماهي العوامل

المعينة لتحقيق ذلك الارتقاء والسمو بالنفس الإنسانية؟

- وما الطريق الذي رغَّب فيه القرآن الكريم ليحقق للإنسان الارتقاء في علاقته مع غيره من البشر؟

وستتم الإجابة عن هذه الأسئلة ومناقشتها من خلال مباحث هذه الدراسة إن شاء الله تعالى.

حدود البحث:

يتناول البحث أبرز الآيات القرآنية الداعية إلى الارتقاء بالحياة الإنسانية، والتي ترشد الإنسان إلى دوره في الحياة، وتمنحه المنهج الرباني الذي يسير عليه ويهديه إلى الطريق الأقوم في علاقته مع ربه، ومع نفسه، ومع الناس.

الدراسات السابقة:

لا تخلو كتب العلماء السابقين من تناول أجزاء هذا الموضوع بالبحث والدراسة، لكني لم أقف على دراسة مستقلة تُفرد الحديث عن موضوع: (ارتقاء القرآن بالحياة الإنسانية) بتأليف خاص، والذي وقفت عليه من الكتب والمقالات العلمية لا يخرج عن أن يتناول العلاقة بين الارتقاء والدين الإسلامي بشكل عام، أو يُركز على ذكر جانب آخر كأثر الارتقاء بالجانب الفكري للإنسان، **وهذه الدراسات هي:**

١- كتاب نظرية الارتقاء والتطور في القرآن الكريم، لرضوان كمال دباجة، ٢٠١٠م، وهو كتاب يركز على إظهار مدى التطابق بين نظرية الارتقاء ونصوص القرآن الكريم وبعض الأحاديث.

٢- كتاب الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن، لعبد الباقي يوسف، ٢٠١٤م، وهو كتاب تناول فيه مؤلفه الموضوع من زاويتين وهي: ركائز العلاقة بين مقومات الحياة الإنسانية والقرآن الكريم، وحاجة الإنسان إلى القرآن الكريم وأهمية القراءة الدائمة له.

٣- أثر القرآن الكريم في ارتقاء الفكر الإنساني، لمحمد بن محفوظ زين العابدين،

مقالة علمية بمجلة كلية أصول الدين والدعوة بجامعة الأزهر، ١٩٨٨م. وهي دراسة ركَّزت على أثر القرآن الكريم في الارتقاء بالفكر الإنساني من ثلاثة جوانب: وهي العقيدة، ووقاية العقل وحمايته، وتربية العقل وتوسيع مداركه ومواهبه وقدارته الخاصة بالعلم.

وبعد سرد منهج هذه الدراسات العلمية يتضح الفرق بينها وبين هذه الدراسة التي هي محاولة لاستخلاص المنهج القرآني في الارتقاء بالحياة الإنسانية من خلال جوانب ثلاثة: وهي ارتقاء الإنسان في علاقته مع ربه، ومع نفسه، ومع الناس، وذكر العوامل والأسباب المعينة على ذلك الارتقاء من خلال الآيات القرآنية.

منهج البحث:

١. منهج البحث قائم على المنهج الاستقرائي الاستنباطي، وذلك من خلال جمع الآيات القرآنية التي تحث النفس الإنسانية إلى الارتقاء والتطوير للأفضل ثم استنباط منهج القرآن في ذلك مع بيان معاني هذه الآيات بالرجوع إلى مصنفات كتب التفسير بالرواية والدراية.

٢. كتابة الآيات بالرسم العثماني وبجانبها اسم السورة ورقم الآية.

٣. تخريج الأحاديث الواردة، فإن وُجدت في الصحيحين أو في أحدهما اكتفيت بالإحالة عليه، وإن لم أجده فيهما أو في أحدهما خرجته من كتب السنَّة الأخرى مع ذكر درجته من حيث الصحة وعدمها، وأمَّا الآثار فأخرجها مع ذكر كلام العلماء عليها ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

٤. بيان الألفاظ الغامضة بالرجوع إلى المعاجم اللغوية.

٥. ذكر المصادر مختصرة في الهامش وتفصيل ما يتعلق ببياناتها في قائمة المصادر الببليوجرافية في نهاية البحث.

خطة البحث: يشتمل البحث على مقدِّمة، ومبحثين، وخاتمة، وهي كالتالي:

المقدِّمة: وتشتمل على أهمية البحث وأسباب الكتابة فيه، وأهدافه، ومشكلته،

وحدوده، والدراسات السابقة، والمنهج المتَّبع فيه، وخطته.

المبحث الأول: التعريف بمفردات عنوان البحث وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: معنى الارتقاء.

المطلب الثاني: معنى القرآن.

المطلب الثالث: معنى الحياة.

المطلب الرابع: معنى الإنسانية.

المبحث الثاني: جوانب ارتقاء القرآن الكريم بالحياة الإنسانية، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الارتقاء في علاقة الإنسان مع خالقه.

المطلب الثاني: الارتقاء في علاقة الإنسان مع نفسه.

المطلب الثالث: الارتقاء في علاقة الإنسان مع الناس.

الفهارس: وتشتمل على فهرس المصادر والمراجع.

هذا وأسأل الله الكريم أن يمدني بالعون والتوفيق والسَّداد، وأن يجعل هذا العمل صالحًا ولوجهه خالصًا وأن يبارك فيه، وأصلي وأسلم على خير خلق الله محمد ﷺ وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

المبحث الأول: التعريف بمفردات عنوان البحث

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: معنى الارتقاء.

المطلب الثاني: معنى القرآن.

المطلب الثالث: معنى الحياة.

المطلب الرابع: معنى الإنسانية.

المبحث الأول: التعريف بمفردات عنوان البحث:

المطلب الأول: معنى الارتقاء:

الارتقاء لغة: مصدر من الفعل (رقى) والراء والقاف والحرف المعتلّ أصولٌ ثلاثة متباينة: أحدهما: الصُّعود، والآخر: عُوذَةٌ يُتعوَّذ بها، والثالث: بقعةٌ من الأرض، فالأول: قولك رَقِيتُ في السُّلّم أَرْقَى رُقِيّاً، قال الله جلّ ثناؤه: ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ [سورة الإسراء: ٩٣]، والعرب تقول: "ارْقَ على ظَلْعِك" أيْ: اصعَدْ بقدر ما تُطيق، والثاني: رقَيْت الإنسانَ، من الرُّقية، والثالث: الرَّقْوَةُ: فُوَيْقَ الدِّعص من الرمل، ويُقال: رَقْوٌ بِلا هاء، وأكثرُ ما يكونُ إلى جانب وادٍ[1]، ورقَّاه ترقية أيْ: صعَّده، والتَّرَقِّي بمعنى التَّنَقُّل من حالٍ إلى حالٍ يُقال: ما زال يتَرَقَّى به الحال حتى بلغ غايته، والرُّقي: الصُّعود والارتفاع[2].

والارتقاء اصطلاحًا: هو الانتقال من الأدنى إلى الأعلى في الوجه المراد[3].

ومما سبق ذكره يتبين أنَّ المعنى اللغوي لا يتخلف عن المعنى الاصطلاحي في

---

(١) مقاييس اللغة، لابن فارس، (٤٢٦/٢) مادة(رقى).

(٢) ينظر: لسان العرب، لابن منظور، (١٧١١/٣) مادة (رقا)، تاج العروس، للزبيدي، (٣٨/ ١٧٦-١٧٧) مادة (رقى).

(٣) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، لأحمد مطلوب، (١ / ٨٦).

الدلالة على معنى الكلمة، فالارتقاء: يعني الصعود والانتقال من حال إلى حال أفضل وأعلى مما كان عليه في السابق.

المطلب الثاني: معنى القرآن:

القرآن لغة: يُقال عند العرب: قرأ يقرأ قراءةً وقرآنًا، فالقرآن مصدر للفعل (قَرَأَ) والذي يأتي بمعنى: الضم والجمع، وسُمي كلام الله قرآنًا؛ لأنَّه يجمع السُّور فيضمها، والقرآن هو التنزيل العزيز، أي: المقروء المكتوب في المصاحف [(١)].

والقرآن اصطلاحًا: تعددت تعريفات العلماء للقرآن وتنوعت ما بين إيجاز وإطناب، وكلٌّ منهم اعتبر خاصية من خصائص القرآن عرَّفه بها وقد لا يذكرها غيره، ولعلَّ أجمع هذه التعريفات وأشملها للقرآن اصطلاحًا هو: "كلام الله، المعجز، المنزل على النبي محمد ﷺ، المكتوب في المصاحف، المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته[(٢)]".

المطلب الثالث: معنى الحياة:

الحياة لغة: جمع (الحيُّ)، والحياة تُستعمل على أَوْجُهٍ: الأولى: للقوَّة النامية الموجودة في النَّبات والحيوان، ومنه قيل: نباتٌ حيٌّ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾[سورة الأنبياء:٣٠]، والثَّانية: للقوَّة الحسَّاسة، وبه سُمِّي الحيوانُ حيواناً، والثَّالثة: للقوَّة العاقِلة، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [سورة الأنعام: ١٢٢]، والحيُّ من كل شيء نقيضُ الميت، والجمع: أحياء، والحيُّ: كل متكلم ناطق، وتأتي الحياة بمعنى النمو والبقاء والمنفعة، وفي علم الأحياء: هي مجموع ما يُشاهد في الحيوانات والنباتات من مميزات تفرق بينها وبين الجمادات مثل التغذية والنمو والتناسل ونحو ذلك [(٣)].

---

(١) ينظر: لسان العرب، لابن منظور، ٢ / ٣٥٦٣، مادة (قرأ)، تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي، (١/ ٣٦٣- ٣٧٠)، مادة (قرأ).

(٢) ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن، للزرقاني، (١ / ٢٤)، المدخل لدراسة القرآن، لمحمد أبو شهبة، ٦.

(٣) ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي، (٣٧/ ٥٠٧)، مادة (حيي)، المعجم الوسيط، لمجمع اللغة العربية، ٢١٣، مادة (حيي).

والحياة اصطلاحًا: هي الوجود وهي تعم المعاني والهيئات والأشكال والصور والأقوال والأعمال والمعادن والنباتات وغير ذلك، وهي: قوة مزاجية تقتضي الحس والحركة(١).

المطلب الرابع: معنى الإنسانية:

الإنسان لغةً: من الناس وهو اسم جنس يقع على الذكر والأنثى والواحد والجمع، واختلف في اشتقاقه مع اتفاقهم على زيادة النون الأخيرة، فقال البصريون: من (الأنْسِ) فالهمزة أصلّ ووزنه فعلان، وقال الكوفيون: مشتق من (النسيان) فالهمزة زائدةٌ ووزنه إفْعَان، والإنسان: هو الكائن الحي المفكر، وإنسان العين ناظرها، وإنسان السيف والسهم حدّهما، والإنسان الراقي ذهنًا وخُلُقًا، والإنسان المثالي الذي يفوق العادي بقوى يكتسبها بالتطور، و(الإنسانية) خلاف البهيمية وجملة الصفات التي تميز الإنسان أو جملة أفراد النوع البشري التي تصدق عليها هذه الصفات(٢).

والإنسان اصطلاحًا: هو المعنى القائم بهذا البدن، ولا مدخل للبدن في مسماه، والمشار إليه بـ (أنا) الإنسانية التي هي صورتها النَّوعية الحالَّة في مادتها المحصلة لنوع البدن الإنساني التي هي كالآلة للنفس الناطقة في التصرف في البدن في أجزائه، وأما النفس الناطقة فهي وإن كانت كمالاً أولاً ومبدأً للآثار والخواص الإنسانية؛ لكنها ليست حالَّة في المادة بل هي متعلقة بها، فلا يُسمى صورةً إلا مجازًا، وتلك الإنسانية المقومة لهذا الهيكل وهذا ما ذهب إليه الحنفية والغزالي، وقال جمهور المتكلمين :بل هو الهيكل المحسوس ويعني به هذا البدن المتقوم بالرُّوح(٣).

---

(١) ينظر: الكليات، للكفوي، ٤٠٦، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، للتهانوي، (١/ ٧٢٣).

(٢) ينظر: تهذيب اللغة، للأزهري، (٨٦/١٣)، مادة (أنس)، المصباح الكبير، للفيومي،١/ ٣٥، مادة (أنس)، المعجم الوسيط، لمجمع اللغة العربية، ٢٩-٣٠، مادة (أنس).

(٣) الكليات، للكفوي، ١٩٨.

ويمكن أن نُعرِّف هذا العنوان المركب من: **ارتقاء القرآن بالحياة الإنسانية** بأنه: الانتقال بالناس من خلال الآيات القرآنية إلى ما فيه صلاحهم وفلاحهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، وتحويل مسار حياتهم من الضَّعف إلى القوة، ومن الانحطاط إلى التَّقدم، ومن الشُّرور واجتراح الآثام إلى الخيرات ومداومة الطاعات، وفتح كل الطرق الممكنة لتحقيق هذا الصعود والنمو والتطور المستمر بحياتهم نحو الأفضل.

المبحث الثاني: جوانب ارتقاء القرآن الكريم بالحياة الإنسانية:

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الارتقاء في علاقة الإنسان مع خالقه.

المطلب الثاني: الارتقاء في علاقة الإنسان مع نفسه.

المطلب الثالث: الارتقاء في علاقة الإنسان مع الناس.

المبحث الثاني: جوانب ارتقاء القرآن الكريم بالحياة الإنسانية

المطلب الأول: الارتقاء في علاقة الإنسان مع خالقه:

خلق الله تعالى الخلق وأوجدهم في هذا الكون لتحقيق عبادته والإخلاص له قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وذلك حقه الواجب المفروض عليهم، فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت رديف النبي ﷺ على حمار فقال لي: "يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟ قلتُ: الله ورسوله أعلم، قال: حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئًا"، قلتُ: يا رسول الله أفلا أُبشِّر الناس؟، قال:" لا تبشرهم فيتكلوا"[1].

وجميع الكتب السماوية وجميع الرسل دعوا إلى هذا التوحيد ونهوا عن ضده من الشرك والتنديد، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، وخصوصًا محمد ﷺ، وهذا القرآن الكريم فإنه أمَرَ به وفرضه وقرره أعظم تقرير، وبيَّنه أعظم بيان، وأخبر أنه لا نجاة ولا فلاح ولا سعادة إلا بهذا التوحيد، وأنَّ جميع الأدلة العقلية والنقلية والأفقية والنفسية

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، ح٢٨٥٦، كتاب الجهاد، باب اسم الفرس والحمار، (٢٩/٤).

أدلة وبراهين على هذا الأمر بهذا التوحيد ووجوبه[١].

إنَّ توحيد الله تعالى بالعبودية الخالصة والطاعة التَّامة حق مطلق لله تعالى، ويجب أن يكون له البعد اللانهائي في حياة المسلم، خاصة وأن تعاسة المرء وما يُعانيه من قلق وخوف وتمزق واكتئاب وغيرها من الأمراض النفسية راجع لفقدان الأمن والسلام النفسي بسبب الصراعات الداخلية، والعلاج الوحيد يتمثل بتوحيد الذات الذي يتم عن طريق ارتباط الذات الإنسانية بمَثَل أعلى مطلق الكمال ذاتًا وصفةً وفعلاً، حيث تكون الغاية والدافع هو الكمال الإلهي الذي نشعر معه بالأمن والسعادة [٢].

ويجمع حُسن الخُلُق في معاملة الخالق ﷻ ثلاثة أمور: تلقي أخبار الله تعالى بالتصديق، وتلقي أحكامه بالتنفيذ والتطبيق، وتلقي أقداره بالصبر والرضا[٣].

وإنَّ ارتقاء المخلوق في علاقته مع خالقه ﷻ متمثِّل في اتباع العقيدة السليمة يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٥]، والامتثال التام لأوامر الله تعالى ونواهيه التي قرَّرها كما جاءت في الكتاب والسُّنة يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٠]، والرضا بقضاء الله وقدره؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾[الفرقان: ٢]، وتقديم محبة العبد لله ورسوله ﷺ على ما سواهما كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ [التوبة: ٢٤]، والإحسان في العبادة والطاعة لله تعالى أيْ: الإخلاص فيهما من جميع أنواع الشرك صغيرها

---

(١) ينظر: القول السديد شرح كتاب التوحيد، للسعدي، ٤٣.

(٢) ينظر: الأخلاق ومعيارها بين الوضعية والدين، حمدي عبد العال، ١٥٠.

(٣) مكارم الأخلاق، لابن العثيمين، ١٤.

وكبيرها [1]، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾[الزمر:٢][2].

وعلى هذا فإنَّ ارتقاء المخلوق في علاقته مع خالقه سبحانه وتعالى قائم على التزام الصراط المستقيم والدعوة إليه وعدم الميل أو الانحراف عنه إلى غيره، فهو أقصر الطرق وأيسرها سُلوكًا على السالكين في الوصول إلى الحق، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[سورة الأنعام:١٥٣]. ومعنى "الصراط" في الآية هو الطريق الجادَّة الواسعة، والمراد: الإسلام، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦١]؛ لأنَّ المقصود منها تحصيل الصلاح في الدنيا والآخرة فشُبِّهت بالطريق الموصل السائر فيه إلى غرضه ومقصده [3].

كما أنَّ القرآن الكريم نزل ليتفاعل معه عقل الإنسان قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٤]، وعباد الرحمن هم الذين أحسنوا رعاية هذا التفاعل ولم يعطلوا عقولهم أمام الآيات قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﴾ [الفرقان: ٧٣]، وعلى المؤمن أن يجتهد ضمن الآيات القرآنية لإيجاد الصراط المستقيم المناسب لزمانه ومكانه وظروفه، فلكل عصرٍ صراطه المستقيم، ولكل بيئة صراطها المستقيم، وينبغي أن ندرك أنَّ الصراط المستقيم يتطور مع التقدم في كشف آيات الآفاق والأنفس، فمثلاً: كان الصراط المستقيم في عصر محمد ﷺ للقيام بالدعوة إلى الله تعالى هو أن يقصد نوادي قريش ليبلغهم، وأن يلتقي بالناس في موسم الحج ليعرض عليهم

---

(1) ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي، (٤٦/٧).

(2) ينظر: الأخلاق في الشريعة الإسلامية، لأحمد عليان،٢٦٤.

(3) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٨/ ١٧٢)، وللاستزادة ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، للآلوسي، (٨/ ٥٧).

دين الله، لكنَّ الصراط المستقيم للدعوة الآن هو أن يستغل وسائل الإعلام الحديثة بما فيها التلفاز، وشبكات التواصل الاجتماعي، وأن يتقن الداعي الدخول إلى هذا الطريق كي يحوله إلى صراط مستقيم يوصل إلى رضى الله سبحانه وتعالى[١].

المطلب الثاني: الارتقاء في علاقة الإنسان مع نفسه:

إن ارتقاء الإنسان بهذه النفس الإنسانية ناتج عن ارتقائه في علاقته بخالقه ﷻ والعلاقة بينهما طردية، فالإيمان بالله تعالى ولوازمه وأركانه وسُننه والبعد عن نواقضه كلها طرق تهذب النفس البشرية وتنقيها، والقلب ملكها في ذلك، فإن زكى ذلك القلب فالأعضاء عسكره المطيع لأمره[٢]، وفي هذا يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: فالجيوش الإسلامية كلها تحت لوائه، ناظرة إليه، إن ثبتَ ثَبُتَت، وإن انهزم ولَّت على أدبارها[٣].

وقد كانت مهمة الرسل والدعاة إلى الله هي تزكية النفوس وإصلاحها والسمو بها وتطويرها للأفضل والآيات القرآنية خير شاهدٍ على هذا، ومنها قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [الجمعة:٢] ، أي: بعث الله تعالى نبيه محمدًا ﷺ رحمةً وهدى للناس يهديهم بهذا القرآن الكريم، فيقرأ على هؤلاء الأميين آيات الله تعالى التي أنزلها عليه، ويزُكيهم ويُطهرهم من دنس الشرك[٤].

ولا عجب في ذلك فقد طهَّر الله تعالى العرب بهذا القرآن فنقلهم من الشرك وظلمة الجاهلية إلى الإسلام ونور الحق، وخلَّصهم من العادات السيئة التي كانت متفشية فيهم آنذاك، وارتقى بهم إلى الحياة الإسلامية الكريمة التي تليق

---

(١) ينظر: مقاصد القرآن الكريم، حنان اللحام، ٢٥٣-٢٥٤.

(٢) ينظر: تزكية النفس، لابن تيمية،١٥.

(٣) الروح، لابن القيم، ٦٨١.

(٤) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري، (٢٢/٦٢٦-٦٢٧).

بمقام الإنسانية، ومن تطهر من الشرك والفواحش، وفعَلَ الخير فصلاحه عائد على نفسه[١] قال تعالى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [فاطر: ١٨].

وقد شغل تزكية النفوس وتطهيرها حيزًا كبيرًا في حياة الرسول ﷺ؛ لأنها ركن أساس في استئناف الحياة الإسلامية على منهاج النبوة، والذي شرع الغاية لم ينسَ الوسيلة؛ فقد شرع الله وسائل تزكية النفوس، وبيَّنها لرسول الله ﷺ للوصول إلى هذه الغاية، ولذلك ليس لتزكية النفوس أعمال خاصة بها دون شعائر الإسلام[٢].

وإننا نجد في كل آية من القرآن الكريم دعوة إلى أصل من أصول الخُلُق الحسن، ونجد كل مبدأ إسلامي يرشد إلى نمط من أنماط مكارم الأخلاق[٣].

إنَّ التحلي بمكارم الأخلاق وتدريب النفس عليها من عوامل الارتقاء بالنفس الإنسانية، وما قيمة الإنسان إذا تجرَّد من الأخلاق الطيبة!

والآيات في هذا الصدد متضافرة وكثيرة يقول الحق تبارك وتعالى مادحًا أشرف خلقه ورسوله الكريم: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]، والخلق العظيم هنا: هو الخلق الأكرم في نوع الأخلاق، وهو البالغ أشد الكمال المحمود في طبع الإنسان؛ لاجتماع مكارم الأخلاق في النبي ﷺ فهو حسن معاملته الناس إلى اختلاف الأحوال المقتضية لحسن المعاملة، فالخلق العظيم أرفع من مطلق الخُلق الحسن[٤].وحاصل خُلُقه العظيم ما فسَّرته به أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لمن سألها عنه فقالت: "كان خلقه القرآن" [٥]،

---

(١) ينظر: زاد المسير، لابن الجوزي، (٦ /٤٨٣).

(٢) منهج الأنبياء في تزكية النفوس، سليم الهلالي، ٥٩.

(٣) الإسلام ومكارم الأخلاق، لعشرة من أعلام الإسلام،٢٩.

(٤) التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢٩/٦٤).

(٥) أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب التفسير، باب تفسير سورة {ن والقلم}، (٢/٤٩٩)، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨]،

وما أشبه ذلك من الآيات الدَّالَّات على اتصافه ﷺ بمكارم الأخلاق، والآيات الحاثَّات على الخلق العظيم، فكان له منها أكملها وأجلها، وهو في كل خصلة منها في الذُّروة العليا، فكان ﷺ سهلاً لينًا، قريبًا من الناس، مجيبًا لدعوة من دعاه، قاضيًا لحاجة من استقضاه، جابرًا لقلب من سأله، لا يحرمه، ولا يرده خائبًا، وإذا أراد أصحابه منه أمرًا وافقهم عليه، وتابعهم فيه إذا لم يكن فيه محذور، وإن عزم على أمر لم يستبد به دونهم، بل يُشاورهم ويؤامرهم، وكان يَقبل من محسنهم، ويعفو عن مُسيئهم، ولم يكن يعاشر جليسًا له إلا أتم عشرة وأحسنها، فكان لا يعبس في وجهه، ولا يغلظ عليه في مقاله، ولا يطوي عنه بشره، ولا يمسك عليه فلتات لسانه، ولا يؤاخذه بما يصدر منه من جفوة، بل يُحسن إلى عشيره غاية الإحسان، ويحتمله غاية الاحتمال ﷺ[1].

ومعنى هذا أنه ﷺ صار امتثال القرآن أمرًا ونهيًا سَجيةً له وخُلُقًا تطبعه، فمهما أمره القرآن فَعَله، ومهما نهاه عنه تركه، هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم، فلم يُذكر خُلُق محمود ونعت جميل إلا وكان للنبي ﷺ الحظ الأوفر؛ لأنه ﷺ لم تكن له همَّة سوى الله تعالى فاجتمعت فيه مكارم الأخلاق التي أُرسل لإتمامها[2].

بل إن القرب من النبي ﷺ في الآخرة وصحبته تكون لمن حَسُن خُلُقه قال رسول الله ﷺ :" إن من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلسًا في الآخرة أحاسنكم

---

(1) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، ٨٧٩.

(2) مكارم الأخلاق في ضوء القرآن الكريم والسنة الصحيحة المطهرة، سليم الهلالي، ٢١-٢٢.

أخلاقًا" [1].

وإذا أردنا أن نحدد موقع الأخلاق في الشريعة الإسلامية فيمكننا القول أنها ليست قسمًا كبيرًا مستقلاً من أقسام الشريعة الإسلامية فحسب، إنها في جملتها تُعد أحد أصول الدين الإسلامي الحنيف، بل إنها تُعد أهم وأخطر أركان دين الله في مختلف الشرائع وعلى مر العصور[2].

هذا وإنَّ كيان الأمة لا يتماسك إلا بدعائم الأخلاق الطيبة، فكيف تأمن الأمة على نفسها إذا ضاعت الأمانة فيها؟ وهل تقوم العلاقات الاجتماعية بدون الصدق والوفاء والتعاون والعطاء؟ إن كل الإصلاحات القانونية لا تُجدي في أمة تعاني من الانهيار الأخلاقي، فما أسهل أن يتلاعب الماكرون على القانون، بل إنه سيُؤكل حقوق الناس باسم القانون؛ لأنه يجد من حوله شهود الزور وآكلي الرشوة والمستضعفين والمستكبرين وسلام على الدنيا إن غابت الأخلاق عنها[3].

هذا وإنَّ كثيرًا ما يدعو القرآن الإنسان إلى الاجتهاد والتنافس في فعل الخيرات، وهو بهذا يرتقي بهذه النفس الإنسانية قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة: ٤٨]. فالله تعالى وكَّل اختيار طُرق الخير وأضدادها إلى عقول الناس وكَسْبهم رحمة منه؛ ليتسابق الناس إلى إعمال مواهبهم العقلية، فتظهر آثار العلم ويزداد أهل العلم علمًا، وتُقام الأدلة على الاعتقاد الصحيح، وكل ذلك يُظهر ما أودعه الله في جبلَّة البشر من الصلاحية للخير والإرشاد على حسب الاستعداد، وذلك من الاختبار ولذلك قال: ﴿ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾

---

(1) أخرجه الترمذي في سننه، ح ٢٠١٨، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معالي الأخلاق، وقال: حديث حسن غريب، (٣٧٠/٤)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، (٤١٨/٢).

(2) الأخلاق في الإسلام، يعقوب المليجي، ٦.

(3) ينظر: مقاصد القرآن الكريم، حنان اللحام، ٢٥١- ٢٥١.

أي: في جميع ما ءاتاكم من العقل والنظر، فيظهر التفاضل بين أفراد النوع الإنساني حتى يبلغ بعضها درجات عالية[١].

ومن معاني الارتقاء بالنفس الإنسانية تأدية الأمانة، والقيام بالفرائض التي ائتمن الله تعالى عليها العباد، وتعم الأمانة جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال وهو قول الجمهور[٢]، وذلك بامتثال الأوامر واجتناب المحارم قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب:٧٢] .كما نهى الله تعالى عن كل ما يبعث الفتور والوهن ويضعف هذا الإنسان فيحول بينه وبين ترقيه وصعوده للأفضل في سائر حياته قال تعالى:

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: العزة والعلو إنما هما لأهل الإيمان الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه، وهو علم وعمل وحال قال تعالى: ﴿ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾، فللعبد من العلو بحسب ما معه من الإيمان، وقال تعالى:

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون: ٨]، فله من العزة بحسب ما معه من الإيمان وحقائقه، فإذا فاته حظ من العلو والعزة ففي مقابلة ما فاته من حقائق الإيمان علمًا وعملاً ظاهرًا وباطنًا [٣].إضافة إلى ما سبق ذكره فقد نزل القرآن الكريم ليدفع الإنسان إلى عالم أوسع ومستقبل أرحب، ويغرس في نفسه وعقله الرغبة الدائمة في التجديد والتطوير،

فهذه الآيات المنسوخة حُكمًا كيف بقيت قرآنًا يُتلى ولم يحذفها الله سبحانه وتعالى أليس في ذلك تدريب للمسلم على المرونة والسعي للتطوير![٤].

---

[١] التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٦/٢٢٤).

[٢] ينظر: معالم التنزيل، للبغوي، (٦/ ٣٨٠)، الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، (١٧/٢٤٥).

[٣] إغاثة اللهفان، لابن القيم، (١/١٨١).

[٤] مقاصد القرآن الكريم، حنان اللحام، ٢٦٩.

ويقول ربنا في محكم تنزيله : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِيٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [غافر: ٥٨]، يقول السّعدي رحمه الله تعالى: كما لا يستوي الأعمى والبصير كذلك لا يستوي من آمن بالله وعمل الصالحات، ومن كان مستكبرًا على عبادة ربه، مُقدمًا على معاصيه، ساعيًا في مساخطه، ﴿ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ أيْ: تذكركم قليل، وإلا فلو تذكرتم مراتب الأمور، ومنازل الخير والشر، والفرق بين الأبرار والفجار، وكانت لكم همَّة عليَّة، لآثرتم النافع على الضار، والهدى على الضلال، والسعادة الدائمة، على الدنيا الفانية [١].

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ٧٤٠.

المطلب الثالث: الارتقاء في علاقة الإنسان مع الناس:

حسن الخلق مع الناس جماعه أمران: بذل المعروف قولاً وفعلاً، وكف الأذى قولاً وفعلاً[1].

وأجمع آية في كتاب الله في عشرة الناس هي قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقد شرح ابن تيمية رحمه الله تعالى ذلك فقال: وهذه الآية فيها جماع الأخلاق الكريمة؛ فإن الإنسان مع الناس إما أن يفعلوا معه ما يحب أو ما يكره، فأُمِر أن يأخذ منهم ما يُحب ما سَمَحوا به، ولا يُطالبهم بزيادة، وإذا فعلوا معه ما يَكره أَعرَضَ عنهم، فيأمرُهم بالمعروف[2] .

والأسس الأخلاقية العامة كالمودة والرحمة والعطاء والتعاون وإظهار الحق والعدل هي في الحقيقة تُجمِّل الإنسان وتصفه بالذوق الرفيع والأدب الراقي في تعامله بها، وتزرع الود بينه وبين الآخرين، وتقوي أواصر المحبة، وبهذا تكفل استقرار المجتمع ونموه وتقدمه أخلاقيًا.

وصحيح أن التعامل بالعدل بين الناس ضروري للحياة الإنسانية؛ لكنه غير كافٍ للنمو والارتقاء، وقد قرن القرآن العدل بالإحسان كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾ [النحل: ٩٠]، ويعني بالعدل أداء الواجب من غير تحيز، وبالإحسان الفضل في أداء والواجب والزيادة عليه[3].

فالعدل أن يُعطي كل إنسان ما يستحق، وعندها تتساوى الحقوق بالواجبات، لكن الإحسان أن يُؤدي الإنسان واجبات أكثر مما يأخذ من حقوق، وعندها يتشكل الفائض الذي يحقق الارتقاء، ويمكن أن نُمثل له في صورة أوضح بالعمل التطوعي وهو ما نُسميه الإحسان، ويعني العطاء زيادة على الواجبات طلبًا لرضى الله تعالى، فالزكاة حق معلوم؛ لكن الصدقة إحسان، والقصاص

---

(١) المجموع القيم من كلام ابن القيم، منصور المقرن، (٥١٢/٢).
(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (٣٧٠/٣٠-٣٧١).
(٣) الأخلاق، أحمد أمين، ١٨٣.

عدل؛ لكن العفو إحسان، وأداء العمل هو الواجب المطلوب؛ لكن الإتقان في أدائه وإنجازه على أكمل وجه وأجمل صورة هو الإحسان؛ ولهذا يعتبر البر أو الإحسان ركن أساسي لنمو الحياة الإنسانية وارتقائها(١).

وهذا ما أشارت إليه الكثير من الآيات القرآنية التي دعت البشرية إلى الارتقاء بالحياة الإنسانية ورغبت في إيصال البر والإحسان للغير في قرابة خمسين موضعًا، وسواء كان ذلك في حق الوالدين كما قال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الإسراء: ٢٣] ، أو بين الزوجين وفي حال وقوع الخلاف والطلاق قال تعالى: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، أو في حق اليتم والتعامل معه ومع ماله

كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، أو في معاملة الكفار المسالمين — غير الحربيين– قال تعالى : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة: ٨] وغيرها من الآيات.

بل حتى في الحوار والمخاطبة مع المخالفين جاء الأمر الإلهي للنبي ﷺ وللمؤمنين بالإحسان في الكلام؛ لما لذلك من الأثر البليغ في إبعاد الناس عن النزاع والشقاق وإبغار الصدور والعداوات يقول الله تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [الإسراء: ٥٣] . أيْ: قل يا محمد لعبادي: إذا أردتم الاستدلال على المخالفين، فاذكروا تلك الدلائل بطريق الأحسن من غير شتم، ولا سبٍّ، ونظيره قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ [النحل : ١٢٥]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت : ٤٦]، وذلك لأنَّ ذكر الحجَّة ، إذا اختلط به سبٌّ أو شتمٌ لقابلوكم

(١) ينظر: مقاصد القرآن الكريم، حنان اللحام، ٢٦٤– ٢٦٥.

بمثله، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ ﴾ [الأنعام : ١٠٨]، ويزداد الغضب، وتكمل النُّفرة، ويمتنع المقصود، وإذا ذكرت الحجة بالطَّريق الأحسن، أثَّر في القلب تأثيرًا شديدًا، ثم نبَّه تعالى على وجه المنفعة فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ ﴾ أيْ: يُحرِّش بينهم ويُفسد، ويغري بعضهم ببعض[١]، والقول الحسن هو ما كان داعٍ لكلِ خلقٍ جميلٍ وعملٍ صالح، فإن من مَلَك لسانه مَلَك جميع أمره[٢].

وبيَّن القرآن أن الغاية من الحياة والموت والعمران استباق الناس إلى الإحسان وتنافسهم فيه[٣] قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ﴾ [الملك: ٢]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ﴾ [الكهف:٧] .

ورغَّب الله عباده المؤمنين في الإحسان بنوعيه الفعلي كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾ [النحل: ٩٠]، والقولي قال تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [الإسراء: ٥٣]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ ﴾ [النساء: ٨٦]، وأما عن جزاء الإحسان فيقول الله تبارك وتعالى:

﴿ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [يونس: ٢٦].

فمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح أبدله الله تعالى الحسنى في الدار الآخرة مصداقًا لقوله تعالى:﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠]. وقوله: ﴿ وَزِيَادَةٞ ﴾ هي تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى

---

(١) ينظر: رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز، للرسعني، (٦١٧/٤)، البحر المحيط، لأبي حيان، (٤٨/٦)، اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل، (٣١٠/١٢)، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، (٥٠١/٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، ٤٦٠.

(٣) أخلاق القرآن، عبد الوهاب عزام،٢٧.

سبعمائة ضعف، وزيادة على ذلك أيضًا، ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القُصُور والحُور والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرة أعين، وأفضل من ذلك وأعلاه النظرُ إلى وجهه الكريم، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه، لا يستحقونها بعملهم، بل بفضله ورحمته، وقد رُوي تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم، فعن أبي بكر الصديق، وعبد الله بن عباس وسعيد بن المسيب، ومجاهد، وعكرمة، وعامر بن سعد، وعطاء، والضحاك، والحسن، وقتادة، وغيرهم من السلف والخلف، وقد وردت في ذلك أحاديثُ كثيرة عن رسول الله ﷺ[1]، فمنها ما رواه صهيب رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: " إذا دخل أهل الجنة الجنة قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئا أزيدكم، فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجينا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل" [2].

والواقع أنَّ أي مجتمع من المجتمعات الإنسانية لا يستطيع أفراده أن يعيشوا متفاهمين سعداء ما لم تربط بينهم روابط متينة من الأخلاق الكريمة، ولو فرضنا وجود مجتمع من المجتمعات على أساس تبادل المنافع المادية فقط، من غير أن يكون وراء ذلك غرض أسمى، فإنه لا بد لسلامة هذا المجتمع من خُلُقي الثقة والأمانة على أقل التقدير، فمكارم الأخلاق ضرورة اجتماعية لا يستغني عنها مجتمع من المجتمعات، ومتى فقدت الأخلاق التي هي الوسيط الذي لا بد منه لانسجام الإنسان مع أخيه الإنسان، تفكك أفراد المجتمع، وتصارعوا، وتناهبوا مصالحهم، ثم أدى بهم ذلك إلى الانهيار ثم الدمار، فإذا كانت الأخلاق ضرورة في نظر المذاهب والفلسفات الأخرى، فهي في نظر الإسلام أكثر ضرورة

---

(1) ينظر: تفسير القرآن العظيم مسندًا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين، لابن أبي حاتم، (٦/ ١٩٤٥)، تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، (٧/٣٥٤-٣٥٥).

(2) أخرجه مسلم في صحيحه، ح١٨١، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الأخرة ربهم سبحانه وتعالى، ٩٩.

وأهمية، ولهذا فقد جعلها مناط الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة ، فهو يعاقب الناس بالهلاك لفساد أخلاقهم قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ﴾ [يونس: ١٣]،وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار: ١٣ – ١٤]، وقال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٧ – ١٠].

فالأخلاق الإسلامية ضرورة؛ لأننا نكون بها أرقى الأمم وأسعدها، ولأنها تدعو كل إنسان ليكون إنسانًا عاملاً خيِّرًا عالماً فاضلاً، ولا تتقدم الأمم إلا بذلك[1].

(1) الأخلاق الإسلامية بين النظرية والتطبيق، محفوظ عزام، ٢٧.

الخاتمة

الحمد لله في البدء والختام، والصلاة والسلام على خير الأنام، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه الشامة الكرام. وبعد:

فهذه خاتمة بعد دراسة ماتعة ومثمرة بإذن الله تعالى لموضوع:" ارتقاء القرآن بالحياة الإنسانية"، **وقد خلصت فيها إلى عدد من النتائج وهي:**

أولاً: أن الارتقاء يعني الانتقال من الأدنى إلى الأعلى، وليس التحول من شيء لشيء آخر مساوٍ له، بل لابد فيه من الصعود نحو الأفضل، والترقي في درجات الكمال الإنساني، وبهذا يتحقق التمايز والتفاضل بين البشر.

ثانيًا: للمسلم من العلو والرفعة والارتقاء بمقدار ما يتحقق في قلبه من الإيمان، والتصديق بالله وامتثال الأوامر واجتناب النواهي والزواجر، فكلما زاد إيمانه حَسن عمله وارتقى به في الدنيا والآخرة.

ثالثًا: ارتقاء الإنسان في علاقته مع خالقه سبحانه وتعالى تتمثل في اتباع الصراط المستقيم، وهو أسهل الطرق وأسرعها في الوصول إلى الهدف، وهو مرتبط بتفعيل العقل في الوصول إلى الحكمة والاهتداء إليها.

رابعًا: أن البر والإحسان من العوامل الأساسية لنمو الحياة وارتقائها، وقد تكررت الدعوة إليهما في القرآن الكريم في قرابة خمسين موضعًا، وما ذاك إلا لحاجة الأمة إليهما؛ فهما طريق الائتلاف والتكاتف والتقدم والتطور الإنساني.

خامسًا: الأخلاق من الضروريات في الإسلام والحاجة إليها ملحة بين الناس، ولا يتصور بناء أمة ونموها وتقدمها وازدهارها في مصاف الأمم المتقدمة بدون أخلاقيات تهذبها، فكما لا يمكن للإنسان الكاذب والمخادع والظالم والحاسد والخائن أن ينجح ويتقدم ويتطور بين البشر؛ بل إن ذلك كله يفسده ويهلكه،

فكذلك الأمة لا بقاء لها إذا ضاعت أخلاقها، ولا مجد يؤرخ لها ويسطره التاريخ إذ انهارت أخلاقيًا وتلاشت.

سادسًا: القرآن الكريم اعتنى بجميع عوامل ارتقاء الحياة الإنسانية بياناً وتقويمًا وتهذيبًا وتطويرًا سواء من الناحية التعبدية أو السلوكية، بل وكثيرًا ما يدفع الإنسان إلى التزام الطريق المستقيم لدينه ودنياه عند مفترق الطرق.

كما أوصي الباحثين والباحثات بالعناية بالدراسات القرآنية التي تبرز مقاصد القرآن في رعاية مصالح الفرد، وكذلك في رعاية مصالح الأمة من خلال المنهج الرباني المتمثل في الآيات القرآنية، وإفرادها بالبحث والدراسة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

فهرس المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم.

ثانيًا: بقية المصادر والمراجع:

١. الأخلاق الإسلامية بين النظرية والتطبيق، محفوظ علي عزام، ط١، (ب: د: دار الهداية، ١٤٠٧هـ).

٢. أخلاق القرآن، عبد الوهاب عزام، ط: د، (مصر: مكتبة النور، س: د).

٣. الأخلاق في الإسلام، يعقوب المليجي، ط: د، (الإسكندرية، مؤسسة الثقافة الجامعية،١٤٠٥هـ).

٤. الأخلاق في الشريعة الإسلامية، أحمد عليان، ط١، (الرياض: دار النشر الدولي،١٤٢٠هـ).

٥. الأخلاق ومعيارها بين الوضعية والدين، حمدي عبد العال، ط٣، (الكويت: دار القلم، ١٩٨٥م).

٦. الأخلاق، أحمد أمين، ط٣، (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٣٥٠هـ).

٧. الإسلام ومكارم الأخلاق، عشرة من أعلام الإسلام، ط ١، (ب:د، دار الكاتب العربي، ١٤١٢هـ).

٨. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، ط٢، (مكة المكرمة: دار علم الفوائد، ١٤٠٠هـ).

٩. إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان، ابن القيم الجوزية، تحقيق: علي بن حسن الحلبي الأثري، ط د، (ب: د، دار ابن الجوزي، س د).

١٠. البحر المحيط، لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، دراسة وتحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، شارك في تحقيقه: زكريا عبد المجيد النوتي، وأحمد النجولي الجمل، وتقريظ: عبد الحي الفرماوي، ط١، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ).

١١. تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي،

تحقيق: عبد الكريم العزباوي، مراجعة: ضاحي عبد الباقي، وخالد عبد الكريم جمعة، ط١، (الكويت: دار الهداية، ١٤٢٢هـ).

١٢. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م).

١٣. تزكية النفس، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: محمد سعيد القحطاني، ط١، (الرياض: دار المسلم، ١٤١٥هـ).

١٤. تفسير البغوي معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق وتخريج: محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، ط: د، (المدينة المنورة: دار طيبة، ١٤١١هـ).

١٥. تفسير القرآن العظيم مسندًا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين، عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي ابن أبي حاتم، تحقيق: أسعد محمد الطيب، ط١، (مكة المكرمة: مكتبة نزار مصطفى الباز، ١٤١٧هـ).

١٦. تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن كثير الدمشقي، تحقيق: مصطفى السيد محمد، وعلي أحمد عبد الباقي وآخرون، ط١، (مصر: مؤسسة قرطبة، ١٤٢١هـ).

١٧. التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، ط: د، (القاهرة: مطبعة السنة المحمدية، س: د).

١٨. تهذيب اللغة، محمد أحمد الأزهري، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، محمود فرج العقدة، (القاهرة: مطابع سجل العرب).

١٩. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبد الرحمن معلا اللويحق، ط١، (بيروت: مؤسسة الرسالة،١٤٢٣هـ).

٢٠. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط١، (مصر: دار هجر،١٤٢٢هـ).

٢١. الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض، ط١، (مصر: مطبعة البابي الحلبي، ١٣٨٢م).
٢٢. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، محمد بن إسماعيل البخاري، اعتناء: محمد زهير الناصر، ط١، (ب: د، دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ).
٢٣. الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط١، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٧هـ).
٢٤. رموز الكتاب في تفسير الكتاب العزيز، عبد الرزاق بن زرق الله الرسعني الحنبلي، تحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، ط١، (مكة المكرمة: مكتبة الأسدي للنشر والتوزيع، ١٤٢٩هـ).
٢٥. روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، محمود الآلوسي البغدادي، ط: د، (بيروت: إحياء التراث العربي، س: د).
٢٦. الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء، ابن القيم الجوزية، تحقيق: بسام علي سلامة العموش، ط١، (الرياض: دار ابن تيمية، ١٤٠٦هـ).
٢٧. زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، ط٣، (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٤هـ).
٢٨. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، محمد ناصر الدين الألباني، ط د، (الرياض: مكتبة المعارف،١٤١٥هـ).
٢٩. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، اعتناء: أبو صهيب الكرمي، (الرياض: بيت الأفكار الدولية، ١٤١٩هـ).
٣٠. القول السديد شرح كتاب التوحيد، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: صبري سلامة شاهين، ط:١، (الرياض: دار الثبات، ١٤٢٥هـ).
٣١. الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي، ط٢، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٩هـ).

٣٢. اللباب في علوم الكتاب، عمر بن علي ابن عادل الدمشقي الحنبلي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، ط١، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ).
٣٣. لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، ط١، (بيروت: دار صادر).
٣٤. المجموع القيم من كلام ابن القيم في الدعوة والتربية وأعمال القلوب، منصور بن محمد المقرن، ط١، (الرياض: دار طيبة، ١٤٢٦هـ).
٣٥. مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، ط:د، (المدينة المنورة: وزارة الشؤون والأوقاف والدعوة والإرشاد، ١٤٢٥هـ) .
٣٦. المدخل لدراسة القرآن الكريم، محمد محمد أبو شهبة، ط٣، (الرياض: دار اللواء، ١٤٠٧هـ).
٣٧. المستدرك على الصحيحين وبذيله التخليص للحافظ الذهبي، لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري، إشراف: يوسف عبد الرحمن المرعشي، ط د، (بيروت: دار المعرفة، س:د).
٣٨. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، (بيروت: دار الكتب العلمية).
٣٩. معجم التعريفات، علي محمد الشريف السيد الجرجاني، تحقيق: محمد صديق المنشاوي، (القاهرة: دار الفضيلة).
٤٠. معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب، ط: د، (العراق: مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٣هـ).
٤١. المعجم الوسيط، مُجمّع اللغة العربية، ط٤، (مصر: مكتبة الشروق الدولية، ١٤٢٥هـ).
٤٢. معجم مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط: د، (بيروت: دار الفكر: س: د).

٤٣. مقاصد القرآن الكريم، حنان اللحام، ط١، (دمشق: دار الحنان، ١٤٢٥هـ).

٤٤. مكارم الأخلاق في ضوء القرآن الكريم والسنة الصحيحة المطهرة، سليم الهلالي، ط١، (الدمام: دار ابن القيم، ١٤٠٨هـ).

٤٥. مكارم الأخلاق، محمد بن صالح العثيمين، ط١، (الرياض: دار الوطن، ١٤٢٨هـ).

٤٦. مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مراجعة وتعليق وضبط: محمد علي قطب، ويوسف الشيخ محمد، ط: ٣، (بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٢٤هـ).

٤٧. منهج الأنبياء في تزكية النفوس، سليم عيد الهلالي، ط١، (مصر: دار بن عفان، ١٤٢١هـ).

٤٨. موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد علي التهانوي، تقديم وإشراف: رفيق العجم، (بيروت: مكتبة لبنان).